

ا.د.سعاد هادي حسن الطائي
دراسات في تاريخ المغول والايخانيين
دكتوراه تاريخ اسلامي
عنوان المحاضرة: اسباب الصراع السياسي
والعسكري بين بركة خان وهولاكو

تعددت اسباب نشوب الخلاف والنزاع بين هولاکو والامير بركة خان، على الرغم من أن العلاقات السياسية بين مغول بلاد فارس والقبيلة الذهبية كانت جيدة وذلك بحكم خضوعهما معاً في بداية الامر لتوجيه قوة سياسية واحدة، وتعاونها في عمل عسكري واحد.

فبعد أن استولى هولاکو على معظم بلاد فارس، وتخلص من اغلب خصومه ونظم امور خانيته بدأ بالاستعداد للقضاء على مناوئيه وخصومه، وكان في مقدمتهم ابن عمه الامير بركة خان الذي كان يتولى حكم بلاد القبيلة الذهبية.

وقد ورد في عدد كبير من المصادر التاريخية عن اسباب الخلاف بين هولاکو وابن عمه الامير بركة خان وسنحاول استعراضها جميعاً، وهي كالآتي:

1- كان في مقدمة أسباب سوء العلاقات بين الامير بركة خان وابن عمه هولاکو الذي بقي وثيقاً هو معارضته لاعتناق الامير بركة خان الاسلام، ولدفاعه وحمایته الدائمة للاسلام والمسلمين.

2- ولاستياء الامير بركة خان مما فعله هولاکو بالخليفة العباسي المستعصم بالله (640 – 656هـ / 1242 – 1258م) وبالمسلمين عند احتلاله مدينة بغداد سنة 656هـ / 1258م.

3- كان الامير باتو خان قد بعث أخوه الامير بركة خان في صحبة منكو خان (649- 658هـ / 1251- 1259م) الى مدينة قراقورم يجلسوه على العرش ، وظل ملازماً للقان مدة طويلة من الزمن، وانه قد اعتر بذلك، وكان يرسل الرسل على التوالي الى كل جانب، وبدأ يتحكم في الامور كافة، وكان هولاکو يتحمل كل ذلك لأنه أخوه الاكبر سناً منه، غير انه بعد وفاة اثنين من اقارب الامير بركة خان وهما توتار، وبلغا قبلي بدأ التوتر والانشقاق بين الامير بركة خان وهولاکو الذي ازداد يوماً بعد آخر.

4-ومن أسباب الخلاف بين الطرفين ما ورد في عدد من المصادر التاريخية انه في سنة 660هـ/1261م (... ورد من عند بركة خان رسولان أحدهما يُدعى بلاغا والآخر ططر برسالة مضمونها ما جرت به العادة من حمل ما كان يحمل الى بيت باتوا-أي باتو- مما كان يُفتح من البلاد وكانت العادة ان يجمع ما يتحصل في البلاد التي يملكونها ويستولون عليها من نهر جيحون مغرباً يقسم خمسة اقسام قسمان للقان وهو الملك الاعظم وقسمان للعسكر وقسم لبيت باتوا فلما مات باتوا وجلس بركة على التخت بدلاً منه لم يوصل اليه هولاکو مما اخذه من العراق ولا من بلاد الشام شيئاً مما كان يوصله الى باتوا).

فعندما بعث الامير بركة خان رسله الى هولاکو وقد خطط لمكيدة للايقاع به ،اذ كان هولاکو يقرب اليه شخصاً يُدعى تكتا فأعطوه هدية ارسلها الامير بركة خان اليه معهم؛ ليوافقهم الرأي لتحقيق اغراضهم، فاتفق معهم، وعندما وصلت رسل الامير بركة خان الى هولاکو بعث هولاکو اليهم من يثير الرعب بينهم وللاطلاع على اخبارهم واحوالهم والغرض الذي جاؤوا من اجله، فعندما علمت اخبارهم واطلعت عليها اخبرت هولاکو بكل ذلك، أمر هولاکو بالقاء القبض عليهم وزجهم في السجن في قلعة تلا ، واتفق مع امرائه على قتلهم بعد خمسة عشر يوماً، وعندما وصلت اخبار كل ذلك الى الامير بركة خان غضب غضباً شديداً واطهر العداوة لهولاکو، ومن ثم بعث برسله الى الملك الظاهر بيبرس واتفق معه للوقوف معاً ضد هولاکو وتوحيد كلمتهما ضده.

5- كان هولاکو مستاءً جداً نتيجة تدخل الامير بركة خان وتحكمه في شؤون المُلک، فضلاً عن الحقد والكراهية التي كان يضرها له ، وبسبب الاسلوب المتزمت والسئ الذي كان يتبعه الامير بركة خان معه ،وقد عبر هولاکو عن إستيائه بقوله: (ولو انه – بركة خان- كبير الاسرة وسيدها الا انه لا يرعى الحياء والخجل ويخاطبني بتهديد وعنف واني لن احابيه بعد هذا).

6-مطالبه آل جوجي خان ولاسيما الامير بركة خان بمقاطعتي آران واذربيجان على اساس انهما تقعان ضمن البلاد التابعة لاملاك ابيه جوجي خان، بينما كان هولاکو يعدها جزءاً من ايلخانيته في بلاد فارس.

7-وفاة عدد من افراد آل جوجي في بلاد فارس وفي ظروف غامضة التي اثارَت حولها الشكوك والشبهات، إذ أعتقد إنهم قد سُمموا .

8-كان لحفيد الامير المغولي جغتاي خان الذي كان يُدعى أنغو ،أو" أنغا" دور مهم في اثارَة الخلاف والنزاع بين هولاکو والامير بركة خان، وذلك بسبب كراهية أَلغو للامير وعداوته للامير بركة خان، فقد القى المسؤولية الكاملة عل عاتق الامير بركة خان في هلاك معظم افراد بيت جغتاي خان في احداث عام 649هـ/ 1251م، وكانت هناك صدمات عسكرية بين الامير بركة خان وألغو، فقد نجح أَلغو من إلحاق الهزيمة بالامير بركة خان مما دفع به الى طلب المساعدة من الامير المغولي قايدو، فقد استشار الامير بركة خان احد منجميه لاستقراء طالع الامير قايدو ليتأكد من حسن نيته، وسرعان ما جاءه الرد مطمئناً اياه بحسن نية هذا الامير حياله، غير ان الامير قايدو وافق على مساعدة الامير بركة خان بالمال والجند مقابل ان يعترف به حاكماً على خانية جغتاي خان ان كان النصر حليفه على الامير أَلغو، غير ان الامير الغو بعث احد جنده لمواجهة قايدو فلم يستطع النيل منه اذ تمكن قايدو من قتله، مما دفع بالامير الغو الى ان يبعث جيشاً كبيراً استطاع ان يُلحق بالامير قايدو الهزيمة.

ومن الجدير بالذكر ان الامير المغولي ألو كان قد نجح في ضم بلاد جده جنكيز خان مضيفاً إليها خوارزم التي كانت تابعة باستمرار لمملكة جوجي خان وحلفائه، وقام أيضاً بطرد معظم الولاة والعمال الذين عينهم الامير بركة خان من بلادهم، ويُعتقد ان المذبحة التي قُتل في اثرها خمسة آلاف مقاتلاً الاشداء في بخارى؛ ممن كانوا في جيش الامير بركة خان كانت على يد الامير ألو.

9- لم يكن الامير بركة خان مرتاحاً ومعجباً لتأسيس هولكو للدولة المغولية في بلاد فارس لاسيما بعد الاندماج الذي حصل بين بلاد آران واذربيجان داخل حدودها مع انهما كانتا من ارث جوجي خان والامير بركة خان وبحسب وصية جنكيز خان.

10- عدم مؤازرة الامير بركة خان للخان الاعظم قوبيلاي (658-693هـ/1260-1294م) في مدينة قراقورم وانتصاره لآخيه الاصغر المدعو اريقابوقا، فقد اعترف الامير بركة خان بهذا الامير خاناً اعظم علي جميع بلاد المغول، وهذا الامر قد أغضب قوبيلاي خان وهولكو معاً وقد كان السبب في ذلك أنه بعد وفاة منكوخان خلفه في الملك أخوه الاصغر اريقا بوقا، وكان أخوه الاكبر قوبيلاي خان في الهند، الذي أنف وغضب بعد وصول هذه الاخبار اليه، فحشد جنده وتوجه الى أخيه وبدأ القتال بينهما، بينما بعث الامير بركة خان المعونة لأريقا بوقا واعترف بخيانتته وسك اسمه على النقود وكان هدفه من ذلك هو خشيته من طغيان شخصية قوبيلاي خان القوية على المكانة التي حصل عليها في امبراطورية المغول منذ عهد سلفه منكوخان، وبسبب الدور الذي مارسه في اجلاسه على العرش، وبالفعل حقق الامير بركة خان النصر على قوبيلاي خان سنة 658هـ/1259م، غير ان المعارك استمرت بينهما مدة طويلة وكانت هذه المعارك سبباً رئيساً لعودة هولكو الى الشرق ولهذا جعل قيادة هذا الجيش الى كبتغا، وكان هدف هولكو من ذلك هو تأييد قوبيلاي خان لتحقيق النصر ضد الامير بركة خان وحليفه اريقا بوقا، ومما لاشك فيه أن هولكو كان يطمح من خلال ذلك فرض سيطرته على عرش امبراطورية المغول، وبالفعل حقق قوبيلاي خان النصر فيما بعد على الامير بركة خان ولم يعترف بخيانتته وحذف اسمه من قائمة خانات القبيلة الذهبية المحفوظة في بلاده .

وذكر ابن خلدون عن سبب هذا الخلاف أن الامير بركة خان دخل في نزاع مع قوبيلاي خان وانتزع منه العرش وولى بدلاً عنه سرخاد، وقد حاول هولاکو أن يحرصه ضد عمه الامير بركة خان مقابل أن يقطعه الخاقانية وغيرها، وقد اكتشف الامير بركة خان هذا الاتفاق وشعر أن سرخاد يريد قتله بدس السم له فقام الامير بركة خان بقتله وولى الخاقانية اخاه مكانه، وقد زاد هذا الامر من حدة الخلاف بين الامير بركة خان وهولاکو الذي بدأ يطالب بالثار لسرخاد.

11- كان للسلطان الظاهر بيبرس دور مهم في تشجيع الامير بركة خان على قتال هولاکو ولاسيما بعد أن وصلت الاخبار اليه باعتناقه الاسلام ولهذا سعى الى تقوية او اصر الصداقة معه فكان يبعث له رسائله يغريه لقتال هولاکو.

اذ توثقت العلاقات السياسية بين الامير بركة خان والسلطان الظاهر بيبرس نظراً لاتفاق مصالحهما معاً ولمواجهتهما لخطر واحد والذي يتمثل بهولاکو زعيم مغول بلاد فارس، وبذلك ضمن السلطان الظاهر بيبرس حليفاً قوياً له، وقد تعزز هذا التحالف وتوسع بانضمام حليف آخر له هو الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليو لوجس فأصبح حلفاً ثلاثياً ساعد الظاهر بيبرس على تنفيذ مشاريعه الكبرى ضد الصليبيين.

الاستعدادات العسكرية للمعركة الفاصلة بين الامير بركة خان وهولاكو:

بعد ذكر الاسباب الرئيسية التي أدت الى نشوب الصراع العسكري بين هولاكو وبركة خان بدأ الطرفان بالاستعدادات العسكرية لها.

فقبل بدأ العمليات العسكرية بدأ هولاكو بتربية عدد من خصومه من المغول ليكسب تأييدهم وليقفوا معه ضد الامير بركة خان، وكان في مقدمتهم داود أولو،- أي داود الضخم- الذي ثار ضد هولاكو سنة 659هـ / 1260م، غير ان ثورته هذه قد فشلت فانفض عنه أصحابه ومالوا الى هولاكو وانضموا اليه، أما هو فقد هرب الى ابن عمه داود نارين، - اي داود الماهر- وعندما أراد هولاكو مواجهة بركة خان عسكرياً سعى الى تربية داود أولو وصالحه وأعادته الى مملكته، غير أن داود هذا بقي في طاعة هولاكو سورياً، اذ كان يكيد له عند بركة خان والسلطان الظاهر بيبرس حتى توفي في سنة 668هـ / 1269م.

وذكر الهمذاني عن استعدادات هولاكو لمواجهة الامير بركة خان من خلال اعتماده على أكفأ وأكثر الرجال ثقة لديه وهو القائد جلال الدين بن الدواتدار الصغير الذي كان محظياً لديه، فأعلى من شأنه ومقامه عنده، وبدأ جلال الدين هذا يصور لهولاكو انه اكثر شخص مخلص له واكثرهم شفقة عليه من بقية رعاياه واتباعه.

اذ قال جلال الدين لهولاكو موضعاً له مدى استعداده لحرب الامير بركة خان:(حيث أن النية معقودة على السير الى صحراء القبجاق فإنه لايزال يوجد في ولايات الخليفة عدة آلاف من أتراك هذه الجهة ممن لهم معرفة تامة بطرق أهل القبجاق ورسومهم. فاذا أذن الملك لي فسوف اسير وأجمعهم حتى يكونوا طلائع في الحرب ضد بركاى- أي بركة خان-). .
وقد اعجب هولاء بما قاله جلال الدين وبمدى حرصه واندفاعه على مناصرته فأصدر أوامره التي تُحتم على حكام بغداد بأن يمنحوه كل ما يطلبه من الاموال والاسلحة والعتاد، ولا يسمح لاي شخص مهما كان بأن يتدخل في عمله حتى ينهي جميع استعداداته لـ تنفيذ المهمة التي كُلف بها.

*ثالثاً: النزاع العسكري بين الامير بركة خان وهولاكو: بعد أن اكمل الامير بركة خان وهولاكو جميع استعداداتهما العسكرية بدأ النزاع العسكري بينهما مباشرة.

فقد بعث الامير بركة خان جيشه وكان في طليعته القائد بوقا، وكان بصحبته ثلاثون الف فارس، فعبر دربند ونزل بظاهر مدينة شروان ، وعندما علم هولاكو بذلك أمر بأستدعاء قواته العسكرية من جميع ممالك بلاد فارس، وفي شهر شوال من سنة 660هـ / 1261م، بدأ بالتحرك وسير شيرامون نويان الى منقلاي ومعه سماغو نويان، فوصلا في شهر ذي الحجة من السنة نفسها الى شماخي قسبة شروان، وفي هذه الاثناء كان جيش الامير بركة خان قد داهم شيرامون، واكثروا من قتل اتباعه واغرقوا سلطان جوق وعدد من اتباعه في الماء، وبعد ايام قلائل من شهر ذي الحجة سنة 660هـ / 1261م وصل اباتاي نويان وبدأ بشن هجماته العسكرية على جنود الامير بركة خان فقتل كثير منهم وهرب بوقا اي.

وعندما وصلت اخبار هروب هذا المتمرذ الى هولالكو تحرك في شهر المحرم من سنة 661هـ/ 1261م من حدود شماخي قاصداً حرب الامير بركة خان. ، وأصدر هولالكو اوامره بان يسير ايلكا نويان ، ونودان بهادر، وباتو ، وسالجيدياي ، وجغان، وبلاغو ، ودوغور لتعقب المتمردين والاستيلاء على منازل جنود الامير بركة خان .

وتنفيذاً لاوامر هولالكو هذه عبر هؤلاء القادة مع جيشهم نهر ترك وكانت معظم بيوت الامراء والاعيان وجنود الامير بركة خان تلمع كالنجوم في تلك الليلة، وكانت صحراء القبجاق مليئة بخيامهم ، كما ان تلك البقعة كانت في تلك الليلة محتشدة بالخيول والبغال والابل والابقار والاعنام، بينما لم يكن أحد من جنود جيشهم مُقيماً في منزله، إذ كانوا قد اسرعوا في الهرب جميعاً تاركين أطفالهم ومتاعهم، فنزل جنود هولالكو في مساكنهم وقضوا ثلاثة أيام في الدعة والراحة.

وعندما أطلع الامير بركة خان وجنوده على أحوال منازلهم وأطفالهم وحاشيتهم وأموالهم ومواشيهم تجمعوا وتوزعوا في تلك الصحراء الفسيحة وهاجموا جنود هولالكو.

غير أن القتال تجدد بين الطرفين في شهر ربيع الاول في سنة 661هـ/ 1262م، وقد بعث هولالكو ابنة أباقا خان لمحاربة بركة خان، وقد استمرت المعارك العسكرية بينهما على ضفة نهر الترك من الصباح وحتى صلاة الظهر، فضلاً عن ان الامدادات العسكرية كانت تصل الى جيش هولالكو باستمرار، فأضطر الامير بركة خان الى التراجع، وكان الطقس بارداً جداً فقد تجمدت مياه نهر ترك واصبح جليداً ولهذا بدأ جند هولالكو بالسير عليه ، غير انه وبفعل الضغط المتزايد عليه انهار الجليد وغرق عدد كبير منهم في مياهه، أما أباقا خان فقد وصل سالماً الى بلاد فارس ، أما الامير بركة خان فقد تراجع هو الآخر عائداً الى دياره

وذكر ابو الفدا ان جنود هولاکو قد عبروا خلال قتالهم للامير بركة خان نهر الغنم بعد أن ألحق بهم جيشه الهزيمة محاولين الفرار فغرق عدد كبير منهم في هذا النهر، بينما غرق عدد آخر منهم في نهر إتل عند محاولتهم السير عليه وهو جليد فانخسف بهم، ويُقال ان الدروع والجواشن التي كانت بصحبة الجنود كانت تخرج من هذين النهرين بعد انتهاء المعركة بزمان طويل.

وقد ذكر اليونيني أنه بعد انتهاء المعركة ونجاة هولاکو هرب الى قلعة تلا وهي في وسط بحيرة اذربيجان فدخلها وقطع الطريق اليها وبقي فيها محبوساً.

ولكثرة القتلى من الطرفين كليهما خلال المعركة علق الامير بركة خان على ذلك بقوله:(يعز عليّ أن يقتل المغول بعضهم بعضاً ولكن كيف الحيلة فيمن غير سنة جنكيز خان).

وعلى اثر هذه الهزيمة التي لحقت بجيش هولاکو، التي اثارته غضبه وحقده أكثر على الامير بركة خان قام بقتل معظم التجار القادمين من خانبة الامير بركة خان، وممن كانوا يقيمون في بلاده ، وقد اثارته هذه الحادثة غضب الامير بركة خان مما دفعه الى الثأر والانتقام منه فقام بقتل معظم التجار القادمين من ايلخانية هولاکو ممن كانوا مقيمين في بلاده.